

الفينومينولوجيا، ومحددات أزمة هوية الذات الأوروبية

حجوب يوسف*

تقول جُل الكتب (ونعي بها، مختلف الدراسات العربية التي أنجزت حول الفينومينولوجيا*
 (Die Phänomenologie): حول معنى البدء الفينومينولوجي، وكما أشارت مصادر الفينومينولوجيا
 ذاتها(**): «دعونا ندرس الأشياء في حد ذاتها»⁽³⁾، فهذه هي المقولة التي تطرح البدء من حيث هو فقط
 بدء فينومينولوجي، يتعين مع هوسرل في الاعتبار الأول للفينومينولوجيا الذي يقوم أساسا على وصف
 الظاهرة، وهذا بعد تأثره (هوسرل) بفراز برتانو***، من خلال فكرة القصيدة، ضمن تحليل الوعي
 باعتبار أن الظاهرة تهب نفسها إلينا عن طريق الحدس (الحدس الحسي، المقولي، التمثالي)*، لكن سرعان
 ما غير هوسرل طريقة بحثه، منتقلا في ذلك إلى الفينومينولوجيا، باعتبارها ترنسندنتالية، ولأن الاهتمام كان
 منصب على كيفية الوصول إلى ماهية الظاهرة، سواء من حيث فعل المحايثة أو المفارقة ضمن عملية الرد

* - طالب دكتوراه - جامعة وهران 2.

** - الفينومينولوجيا، يقول هوسرل «الفينومينولوجيا: [لفظ] يدل على علم وعلى نظام من الميادين العلمية؛ غير أن «الفينومينولوجيا»
 تدل كذلك وفي الأصل على منهج وعلى موقف للفكر: «موقف الفكر الفلسفي» بخاصة، و«المنهج الفلسفي» بخاصة [هوسرل إدموند،
 فكرة الفينومينولوجيا، ترجمة فتحي إنقزو، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007، ص56] وكونولوجيا: أول من استعمل لفظ
 فينومينولوجيا هو لامبرت في كتابه الارغانون الجديد سنة 1764، ثم إستعملها كانط من بعده في كتابه «مبادئ الميتافيزيقا الطبيعية عام
 1786، ثم جاء هيغل في كتابه «فينومينولوجيا الروح» عام 1807، ثم وليام هاملتون في كتابه «الكتابة المنطقية» عام 1860 [انطوان
 خوري، مدخل إلى الفلسفة الظاهرية، دار التنوير للطباعة والنشر، بط، 2008، ص35]. وللمزيد راجع: المحاضرة الافتتاحية في فرايبورج
 1917 لهوسرل ضمن عنوان «ما الفينومينولوجيا؟»

*** - من أهم مؤلفات هوسرل نذكر على التوالي: «فلسفة الحساب» عام 1891، «أفكار من أجل فينومينولوجيا خالصة وفلسفة
 فينومينولوجيا» في ثلاثة مجلدات التي جمعها هوسرل في كتاب واحد وهو «مخل عام إلفينومينولوجيا الخالصة»، «محاضرات في
 الفينومينولوجيا الوعي الزماني الداخلي» نشر من طرف تلميذه هيدغر عام 1928، «المنطق الصوري والمنطق الترندنتالي» عام 1929،
 تأملات ديكرتية» عام 1931، «أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترندنتالية» عام 1936، الحكم والتجربة في جينيالوجيا المنطق
 » الذي أعده للنشر مساعده لودفيغلانجيري.

3 Christoph Delius et Matthias Gatzemeier, Deniz Sertcan, Kathleen Wunscher, histoire de la philosophie, Editions place des victoires, 2005, p97.

4 فرانس برتانو (1838-1916): فرانتس برتانو، ولد بمنطقة الراين، دخل الدير وأصبح كاهنًا، ترك الكهنوت
 وإستقال من الحياة الدينية بعد أن أعلن مجمع الفاتيكان الأول عام (1871) «عصمة البابا». بعدها دخل جامعة فيينا وشغل كرسي
 الفلسفة، لكنه تخلى عن منصبه عام (1880)، ثم عاد إلى نفس الجامعة من جديد ودرس فيها مادة علم النفس، ثم سافر إلى فلورنسا حيث
 بقي فيها حتى آخر حياته. ومن أهم مؤلفاته: «علم النفس من الوجهة التجريبية» عام (1873)، «مصدر المعرفة الأخلاقية» عام (1890).
 5 راجع: كتاب «مباحث منطقية - Logische Untersuchungen» بالنسبة للترجمة العربية؛ الفصل السادس: الحدوس الحسية
 والحدوس المقولية والفصل السابع: دراسة التمثل المقولي [هوسرل إدموند، مباحث منطقية: عناصر إيضاح فمياء المعرفة، الكتاب الثاني جزء
 الثاني، ترجمة موسى وهبة، دار كلمة والمركز الثقافي العربي، ط1، 2010.]

(رد فينومينولوجي، رد ماهوي)، وهذا أكيد بعد تأثره بأفكار فلاسفة، من أمثال: (ديكارت: Descartes: 1596-1650، كانط Kant: 1724-1804، أفلاطون Platon: نحو 427/428 - 348 ق م، ليبنتز Leibniz: 1646-1716، لوك 1632 Look-1704، هيوم Hume: 1711-1776)، لكن هذا لم يدم، فسرعان ما توجه هوسرل في - آخر حياته- بالفينومينولوجيا إلى معالجة قضايا العالم، عالم المعيش (Erlebenswelt)، بمن في ذلك الإنسان، باعتباره يسكن أفق هذا الأخير، ولأن البشرية الأوروبية في أزمة تتحدد في سياقات مختلفة؛ بل هي أزمة العلوم والفلسفة والمعنى، وبالتالي الإنسان وهويته، أي أزمة هوية*، التي تمس الجانب الثقافي والأخلاقي للإنسان الأوربي بالتحديد، كما صرح بذلك هوسرل في تيمة عنوان كتابه العمدة الأزمة (Die Krise)، إنها « فشل ظاهري للعقلانية»⁽²⁾.

إن الحديث عن هكذا مصطلح «الهوية»، لربما يدفعنا الحديث عن محددات المعنى الجواني لهذا المصطلح، وخاصة الهوية الأوروبية كما حدد معالمها هوسرل ضمن مؤلفه المعنون: «أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية: مدخل إلى الفلسفة الفينومينولوجية» *Die krisis der europäischen wissenschaften und die transzendente phänomenologie: Eine Einleitung phänomenologische philosophie*، عام (1936)، أي عندما نقول الهوية الأوروبية، فهو مصطلح لا يتناقض مع وظيفة، كذا مصطلح الإنسان الأوربي، وكذا مصطلح الثقافة الأوروبية، هذا من حيث إسقاط المعنى، حتى وإن كان هناك اختلاف، فلن يكون إلا طفيف، وكما هو معلوم ومسلم به، أن هوسرل - متأخرا - قد عالج الأزمة الأوروبية من خلال الفينومينولوجيا باعتبارها منهج تجعل من الفلسفة علما صارماً ودقيق دقة الرياضيات، وهذا من خلال إبراز معالمها الأولية (الأزمة) من جانب العلم الوضعي، والعلم السيكلولوجي، والثانوية، من حيث هي أزمة تتحدد في الثقافة وهوية الإنسان الأوربي لتجتمع هذه المعالم لتشكّل معطى: أزمة الفلسفة في توجيه الحياة أو توجيه أفقها المعيش (Horizont der Erlebenswelt) كمعطى قبلها، كما صرح بذلك هوسرل؛ ولأن الحياة والمعيش (Leben und Erleben) هي أفق إنجازات الوعي الزمكاني، لذا يتحدث هوسرل في كتابه «الأزمة» عن معنى كلمة «حياة»، حيث يقول: «الحياة ليس لها معنى فيزيولوجي، إنها تعني حياة تعمل من أجل غايات وتنجز تشكيلات روحية: إنها حياة مبدعة للثقافة بالمعنى الأوسع في إطار وحدة تاريخية ما»⁽³⁾.

1 الهوية: أولا: صفة تعطي لكائن أو نوع أو شيء ليعرف بها وعندما يكون الشيء متشابها مع الآخر في كل شيء تكون لهما نفس الهوية، مثل تشابه التوائم أو تشابه الأسماء. ثانيا الهوية كمبدأ فلسفي تعبر عن ضرورة منطقية بعينها، فهي تؤكد أن الموجود هو ذاته دوما، لا يلتبس به ما ليس منه، فهو عين ذاته كما تقول مقولة (مبدأ الهوية) فالشخص هو هو مهما اعتراه من تغيرات [كميل الحاج، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 2000، ص642]. وللمزيد من التوضيحات راجع: مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص 720. وعبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 2000، ص 911.

2 هوسرل إدموند، أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية، ترجمة: إسماعيل المصدق، المنظمة العربية للترجمة بيروت، ط1، 2008، ص 558.

3 المصدر نفسه، ص 518.

، أي الحياة هنا، لا تأخذ معنى بيولوجي؛ بل أنها تدل على أفق (Horizon) جماعي من الأفراد تعيش رقعة جغرافية ما في إطار مجموعة من العادات والمعتقدات لتشكل ثقافة خاصة بها، لكن ما يهم في هذا الكتاب - وبالخصوص - هي الأزمة نفسها كما جعلها عنوانا باعتبارها أزمة فقدان المعنى التي مسّت كل مجالات الثقافة (أزمة التوجه الأخلاقي والسياسي) لدى البشرية الأوروبية، وهي في نفس الوقت، أزمة تتحدد في العلوم الحديثة المستقلة عن العلم الشامل، كما سينعته هوسرل بالدرجة الأولى بإعتبار هذا الأخير ليس لديه القدرة على توجيه الحياة والعلم، وبالتالي الثقافة الراهنة. إذن، من خلال هاته المقدمات لربما يمكن أن تفتح لنا أفق متن الموضوع والولوج إلى العمق اللامتعين في العيان، بإعتبار أن الأزمة ليست إلا نتاج الحد الأقصى لما وصلت له الثقافة الأوروبية.

لماذا الثقافة الأوروبية؟ لعلى من بين المفاهيم المتداولة في عالم المعيش عندما نقول ثقافة (Culture)، فماذا نقصد بهذا المصطلح، مثلاً، حينما يتعلق الأمر بشخص معين أو بالأحرى حضارة ما على وجه العموم في حضور التاريخ؟ وبالتالي من أهم المعاني التي تأخذها (ثقافة): أن شخص قد طور قدراته العقلية أو الجسدية عن طريق التعلم بإعتبار أن المعرفة هي شرط أساسي وضروري للثقافة، وكونولوجية المصطلح كما يوضحه لالاند في معجمه: منذ القرن السادس عشر تصادف كلمة ثقافة على أنها ثقافة الذاكرة وثقافة العقل، وهذا واضح مع دوفورتيا (De forta) من خلال شعره في طبعة أعماله عام (1797) بالحاجة إلى الإضافة في الهامش: «إن كلمة ثقافة هذه تدل كما ترون في الفكرة وما بعدها على حالة عقل مثقف بالتعلم⁽¹⁾»، لكن هل معنى الثقافة ثابت بالمعنى المكاني؟ بالعكس، نجد مثلاً في الألمان يوجد تحديد مغاير لمعنى المصطلح، أي عندما تنتقل كلمة ثقافة (Kultur) إلى الشكل الألماني هو يدل على معنى الحضارة (Civilisation)، وكان له «..وجهان: وجه ذاتي، وهو ثقافة العقل ووجه موضوع، وهو مجموع العادات والأوضاع الاجتماعية والآثار الفكرية، والأساليب الفنية والأدبية، والطرق العلمية والتقنية وأنماط التفكير، والإحساس والقيم الذائعة في مجتمع معين أو هو طريقة حياة الناس وكل ما يملكونه ويتداولونه اجتماعياً لا بيولوجياً⁽²⁾»، كما أنه قد تكون مرادفاً لكلمة تنوير (Kulturkanpf - Aufklarung) (*)؛ ولأن الثقافة جعلت من الإنسان الأوروبي أن يرى النور، أي «خروج الإنسان من مرحلة القصور إلى النور» (كانط)؛ ولأن هذه الثقافة لم تعرف النور إلا مع اليونان القدماء، باعتبارهم المنشئين الأوائل للعلم الشامل الذي ينطلق «من (Aus) «و» إلى (An) «الحياة، لا بل إنه «العلم بالوجود بما هو موجود» على حد تعبير أرسطو، وبالتالي فالثقافة بمعنى هوسرل، يعني به الفلسفة، بإعتبارها العلم الشامل اللانهائي كما كان عند اليونان، ولأن العلم الشامل (الفلسفة) حسب هوسرل لا يحمل سمات نوعية خاصة بالثقافة الأوروبية «.. بل إنها إمكانية

1 أندرية لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب دليل أحمد دليل، مجلد 1 (-)، منشورات عويدات، ط2، 2001، ص ص 240 241.

2 جميل صايبا، العجم الفلسفي، جزء1، شركة العالمية للكتاب، بيروت - لبنان، بط، 1999، ص ص 378 379.

3 حول ذلك راجع: عبده الطلق، معجم المصطلحات الفلسفية، المركز التربوي للبحوث والأمناء مكتبة لبنان، بيروت، ط1، ص ص 37 38
Annette Zwahrundanderen, Meyers GroBes Handlexikon (A-Z) Mannheim, Leipzig. Wien. Zürich, 2003, S503 und S599

كامنة ضمناً في كل ثقافة بشرية؛ بل إنها الشكل الذي تتجه نحوه كل ثقافة مهما كانت خصوصيتها⁽¹⁾.

لنوضح الرؤية؛ «أوروبا الروحية لها مكان ميلاد⁽²⁾»، ليس المقصود هنا من مصطلح «مكان» بالمعنى الجغرافي، وإنما بالمعنى الروحي لميلاد أمة من خلال بشرية تؤمن بها ولن تكون هاته البشرية إلا كما يسميها هوسرل من خلال محاضرات براغ (14-15 نوفمبر 1935)، في قوله: «الأمة اليونانية القديمة في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، فيها نشأ عند الأفراد موقف جديد من نوعه إزاء العالم المحيط ونتيجة لذلك انبثق نوع جديد تماماً من التشكيلات الروحية مما بسرعة إلى أن أصبح شكلاً ثقافياً مغلقاً نسقياً سماه اليونان فلسفة⁽³⁾»، ومعنى القول المقول أن مفهوم الثقافة لن تكون إلا من حيث هي فلسفة ترشد الحياة الكلية للبشرية فهذه الفلسفة بالمفهوم الثقافي لم يظهر إلا مع اليونان الأوائل الأمجاد، ولا في أي حضارة غيرها من حضارة الهند أو مصر... باعتبار أن العلم اليوناني كان يربط بين النظرية الممارسة، أي بين العلم الشامل والطبيعة، على أنها الأفق الجغرافي التي تعيشه وتعيشه الذوات الإنسانية أي وظيفة الإنسان إما خدمة الاهتمامات الطبيعية للحياة (خادماً للأمة)، وإما خدمة الممارسة الطبيعية (تحقيق المصلحة العامة)، وبالتالي رغم الاختلافات والفوارق الداخلية (أوروبا فقط) يقول هوسرل: فهم يبقون في جذر واحد ألا وهو اليونان، والتالي الثقافة التي تشكل بالضرورة الهوية التي هي من المفروض أن يحافظ عليها أي شخص كان، أي هناك شيء يجعل البشرية الأوروبية تحن لبعضها البعض إنها الأخوة التي تمنح وعياً بأنهم بلداً واحد ذو ثقافة وهوية واحدة التي تنشدهم لغاية باتجاه شكل مثالي للحياة والوجود لحد أقصى من الغائية الزمنية، وعتقد هوسرل أن هذه البشرية والثقافة البشرية إنما هي تنحى باتجاه الأبدى، فهي لا تكرر نفسها باعتبارها مشروع لن يكتمل في الروح الأوروبية؛ ولأنها - أي «النفسيّة البشريّة لم يسبق لها أبداً إن اكتملت ولن تكتمل أبداً ولا يمكن أبداً تكرار ذاتها⁽⁴⁾» ، لكن السؤال الذي يطرح نفسه، والذي بإمكانه أن يبقينا على الدوام بصلب الموضوع وبغض النظر عن كل هاته المسلمات التي قدمها هوسرل عن ثقافة اليونان، نقول: إذا كانت البشرية الأوروبية تسعى دائماً لتحقيق النموذج الجديد فلماذا العودة لليونان؟ أو كيف نحقق سؤال قد طرحه هوسرل: كيف نجعل الإغريق إمكانية لتخطي الحاضر (الأزمة)؟

الإجابة لن تتماها لنا إلا عندما نقر بما هو موجود أين قر كما أقر هوسرل نفسه: «هناك أزمة؛ «أزمة كان ينبغي أن تكون فيها الذات الأوروبية والسبب من خلال .. سيطرة النزعة الموضوعية وتأويلها الضيق للعلم، [حيث] يتم وضع علمية الفلسفة وصرامتها موضع شك، وذلك بدعوى أنها لا تحقق مقاييس

1 إسماعيل المصدق، (هوسرل وأزمة الثقافة الأوروبية)، مدارات فلسفية، اعدد الأول، 1998، ص 15.

2 هوسرل إدموند، أزمة العلوم الأوروبية والفيتوميتولوجياالترنسندنثالية، ترجمة: إسماعيل المصدق، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008، ص526.

3 المصدر نفسه، ص 526.

4 المصدر نفسه، ص 526.

العلمية كما بلورتها علوم الطبيعية وفي مقدمتها الفيزياء، وخطورة هذا الموقف تكمن، حسب هوسرل، في أن التشكيك في إمكانية بناء فلسفة لها طابع العلمية والصرامة، معناه تخلي العلم عن المشاكل التي تنتمي للفلسفة بمعناه الدقيق، أي عن الأسئلة العليا للوجود البشري ... وبالتالي التخلي عن كل طموح في توجيه الحياة البشرية استنادا إلى العلم العقل⁽¹⁾، أي في ظل سيطرة العلوم الوضعية وتبني علوم الروح لها أصبح الإنسان في مأزق، مأزق المفارقة؛ مفارقة الذات العالم وعدم طرح الأسئلة المتعلقة بالوجود الإنسان فأضحى كل ما هو قابل للبحث -من الظواهر- يجب أن يحتكم للمنهج العلمي واستبعاد كل ما هو ذاتي في مقابل قبول كل ما هو موضوعي، أي أصبح موقف البحث في إبعاد أي حكم متعلق بالذات، وبالتالي إبعاد الخبرة التي مصدرها العالم المعطى بشكل قبلي وما العنوان الذي صاغه هوسرل في آخر حياته «الأزمة» (1936) إلا رؤية هادفة إلى ما آلت إليه البشرية، وآفاق الفينومينولوجيا الجديدة التي سوف تبحث عن سبب الأزمة وذلك من خلال ما قمنا به «العودة إلى اليونان» بتوجيه من معنى قول هوسرل «العودة إلى الأشياء عينها» ومصطلح «العَوْدَة» أساسي من خلال العودة إلى الإغريق، وتتبع غائية التقدم التاريخي، وهذا لن يكون حسب هوسرل إلا باعتبارنا فينومينولوجيين.

لـ «نُعَاوِد» التدقيق في مسألة الأزمة: «الأزمة كما تم استعماله في حقل الإيستومولوجيا- وكمصطلح - حيث تشير.. إلى اللحظات الحرجة التي تعرفها العلوم في تطورها⁽²⁾»، أي يشير هذا المصطلح في معناه الجواني إلى الانسداد والتوقف الذي وصل إليه العلم في العالم المعيش؛ بل هو عجز عن الاستمرارية والنمو والعتاء في آن واحد، ويرجع ذلك إلى،

- أولاً: غموض في المفاهيم التي يتأسس عليها (استعمال مفاهيم غير واضحة)؛
- ثانياً: مفارقات في مبادئه (دراسة الطبيعة ضمن منهج التفسير)؛
- ثالثاً: وجود بعض الثغرات في مناهجه (فصل الذات عن الموضوع).

وهكذا، بالنسبة إلى علم الروح من خلال دراسة الذات الإنسانية من منطلق منهج التفسير، وفي اعتبارها ذات سيكوفيزيائية، إذن هذه هي السيرة الغائية للثقافة الأوروبية إنها حركة تجديد تدريجي جرى مند البدء بكيفية تواصلية والتي بعثت في الأخير أسلوباً جديداً لوجود البشرية الأوروبية في مجال حياتها، أي بشرية - كما صرح بها هوسرل في قوله - « تعيش في التناهي لكنها تتطلع في عيشها نحو أقطاب اللانهاية⁽³⁾ »، ومن هذا تكون محاولة هوسرل من خلال سؤال بمقدورنا طرحه: ما موقف الفينومينولوجيا من الأزمة؟ أو بعبارة أخرى كيف عالج هوسرل الأزمة الأوروبية؟ وكيف تحقيق النظرة العامة للعالم؟

1 إسماعيل المصدق، (هوسرل وأزمة الثقافة الأوروبية)، مدارات فلسفية، اعدد الأول، 1998، ص 13.

2 المرجع نفسه، ص 10.

3 هوسرل إدموند، أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجي الترنسندنالية، ترجمة: إسماعيل المصدق، المنظمة العربية للترجمة، بيروت،

ط1، 2008، ص 528.

لا شك أن مع سيادة الموقف الطبيعي وإعتماد التفسير (*Die Interpretation*) كمنهج لفهم العالم ضمن الدقة والصرامة المحققين أدى هذا إلى السيطرة على الثقافة من خلال تبني علم الروح هاته المنطلقا، ودراسة الإنسان من منطلق تفسيره فكل هذا كان مآله الفشل حسب هوسرل، فكان إلى جانب ذلك المذهب التاريخي الذي حاول النظر في المسألة أي مسألة الذات الإنسانية وضرورة تحقيق النظرة العامة للعالم، أي كان فللهلم دلتاي (19: 1833/11/Wilhelm Dilthey - 1911/10/01) من خلال كتابه « نقد العقل التاريخي » أن يغير طريقة البحث من السيكلوجية الفيزيائية إلى سيكلوجية وصفية تحليلية بالإضافة إلى أنه دعا إلى ضرورة فصل علم النفس عن العلم الطبيعي؛ لأن الإنسان لا يمكن اعتباره ظاهرة فيزيائية؛ لأنه يعتبر في الأساس ظاهرة نفسية قبل هذا، وبالتالي فهو يقتضي فهم من نوع آخر من خلال الحوادث التاريخية، ولأننا نفهم العالم من خلال حركته المستمرة لكنه (دلتاي) مع ذلك لم يستطيع أن يقدم فهم موضوعي للظاهرة الإنسانية، وبالتالي لم يحقق النظرة العامة للعالم باعتباره لم يخرج عن المذهب التاريخي. إذن من خلال هذه التراكمية للأزمة نجد إن هوسرل هو الذي قرر أن يعيد الاعتبار لذات الإنسانية وعالم المعيش في الفلسفة حيث كانت البدء من خلال «العودة للإغريق»، على أنه ليس ثمة علاج إلا بتأسيس علم جديد دقيق، كلي يتجلى فيما قصده من خلال كتابه «الفلسفة علما دقيقا» عام (1911) إذ يقول: «ليس ثمة إلا علاج واحد لهذه الشرور وأمثالها: نقد علمي وبالإضافة إليه علم جذري ينشأ من أسفل، ويقوم على أسس متينة ويتقدم وفقا لأدق المناهج - وهو العلم الفلسفي الذي من أجله نتكلم هنا ..⁽¹⁾» ، ومن هذا الفلسفة هي وحدها قادرة على إخراج البشرية الأوروبية إذ ما استرجعت مكانتها المنسية (الهوية) واحتكمت لدقة والصرامة في البحث، ومعاودة توجيه الاهتمام إلى العالم المعيشي وتحقيق النظرة العامة، أي يجب أن يكون حقل الفلسفة هو العالم ككل في أنه يشكل حياتنا؛ لأن الفلسفة كما يقول هوسرل: «..هي في ماهيتها علم البدايات الحقيقية، أو علم الأصول..والعلم الذي يهتم بما هو جذري لا بد أن يكون -من كل وجهة للنظر- جذريا هو نفسه في طريقة بحثه⁽²⁾».

والفلسفة التي قصدها هوسرل هي الفلسفة الأولى؛ بل هي العلم الشامل كما كان في الثقافة اليونانية وكذلك في اعتبارها لديها إمكانية ربط الإنسان بالوجود وهذا ما جاءت به الفيثومينولوجيا لتصرح به، من هنا يعود هوسرل لإيفاء حل موضوعي لعلم الروح فيقول في هذا الصدد: « إن الروح، بل والروح وحده، يوجد في ذاته ولذاته، إنه مستقل ولا يمكن معالجته بكيفية عقلية حقا، بكيفية علمية حقا ومن الأساس إلا في هذا الاستقلال⁽³⁾»، ومعنى أن الذات الإنسانية لا يمكن فهمها ومعالجتها إلا باعتبارها ذات في علاقة حميمية مع عالم الخبرة، وما وصلت له الثقافة الأوربية في العقلانية والوضعية إلا في كونها فصلت الذات عن عالمها وهذا بالضرورة ما أدى إلى أزمة في العلوم والفلسفة باعتبارها ثقافة عصر بالتالي الهوية الأوربية.

1 إدmond هوسرل، الفلسفة علما دقيقا، ترجمة: محمود رجب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2002، ص 99.

2 إدmond هوسرل، فكرة الفيثومينولوجيا، ترجمة: فتحي إنقزو، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007، ص 104.

3 هوسرل إدmond، أزمة العلوم الأوروبية والفيثومينولوجيا الترنسندنتالية، ترجمة: إسماعيل المصدق، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008، ص 555.

وكاستنتاج، لا ربما يكون سؤال كل واحد منا: ماذا يمكن أن تقدمه لنا الفيثومينولوجيا؟ أو بمعنى آخر وقريب: ماذا نستفيد من الدرس الفيثومينولوجي؟ الإجابة هي فقط كما سنصرح: من خلال العنوان «الفيثومينولوجيا، ومحددات أزمة هوية الذات الأوروبية»، لقد كان توجه متن الفيثومينولوجي إلى معالجة الأزمة باعتبارها غمط أقصى لما آلت إليه ثقافة الذات الأوروبية و«الواو» (und) هنا لن تكون إلا باعتبارها أداة وصل، أي وصل الفيثومينولوجيا كما وضع معاملها هوسرل بالواقع التجريبي أو عالم المعيش المعطى قبلها، وما كان موقف هوسرل إلا نتيجة لثقافة عصره وهذا ما يدعو القول في أن الفيثومينولوجيا هي نتيجة العصر، العصر المتأزم، لكن ماذا لو كان الرهان على الوطن العربي ضمن موضوع الفكر العربي وطريقة تحقيق النهضة إن صح التعبير باعتبار أن مفهوم النهضة لا يتناقض مع مفهوم التنوير، من هذا يمكن اصطلاح العنوان «الفيثومينولوجيا ومحددات أزمة هوية الذات العربية» بحيث هاهنا «الواو» ليست أداة وصل بقدر ما تؤدي دور الفصل، ومن هذا تكون الفيثومينولوجيا من وجهة نظرة غربية والفيثومينولوجيا من وجهة نظرة عربية، وبالتالي ماذا يمكن أن تكتشفه الفيثومينولوجيا في الواقع العربي؟ أي إذا كانت الفيثومينولوجيا تمارس فعل «العودة» إلى الإغريق فما طبيعة العودة بالنسبة للواقع العربي، هل ستكون عودة إلى الأصل (أصل الثقافة العربية) ضمن الدين الإسلامي الذي يتميز بالشمولية أم هي عودة مشدودة دائما للغرب في مفهوم «المعاصرة»؟ هل بإمكان الفيثومينولوجيا مرة ثانية أن تعبر إلى مسار نحو الوطن العربي كواقع متأزم كما عند الغرب وبغض النظر عن الظروف التاريخية والجغرافية والعقائدية أم أنها ستبقى فقط فيثومينولوجيا باعتبارها فيثومينولوجيا غربية؟

ومنه لن يتحقق هذا الهدف إلا في تطبيق الفيثومينولوجي باعتبارها عالمية في اتباعنا مبدأ قد صرحت به ذات يوم «دعونا ندرس الأشياء في حد ذاتها»، ومن هذا لن تكون العودة إلا في اعتبارها متجهة نحو الأصل والبدء والتراث.

قائمة المصادر والمراجع:

1. إدموند هوسرل، الفلسفة علما دقيقا، ترجمة وتقديم: محمود رجب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط، 2002.
2. إدموند هوسرل، فكرة الفيثومينولوجيا، ترجمة: فتحي إنقزو، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007.
3. إسماعيل المصدق، (هوسرل وأزمة الثقافة الأوروبية)، مدارات فلسفية، اعدد الأول، 1998.
4. لالاند أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية: معجم مصطلحات الفلسفة النقدية والتقنية، المجلد الأول (A-G) ترجمة: خليل أحمد خليل، عويدات للنشر والطباعة، بيروت - لبنان، د.ط، 2008.
5. جميل صايبا، العجم الفلسفي، جزء 1، شركة العالمية للكتاب، بيروت - لبنان، دون طبعة، 1999.
6. -هوسرل إدموند، أزمة العلوم الأوروبية والفيثومينولوجيا الترنسندنتالية ترجمة: إسماعيل المصدق، المنظمة العربية للترجمة بيروت، ط1، 2008.